
التلطف في بيان
مبادئ التصوف
لفضيلة الشيخ العلامة
محمد بن أحمد بن محمد علوه

العنوان / التلطف في بيان مبادئ التصوف

عدد الصفحات / (٦٦)

تأليف الشيخ العلامة / محمد أحمد محمد عاموه

الإخراج والتصميم الفني / أكرم عمر علي السلموني

رقم التسلسل / لدار الأشاعرة للنشر والتوزيع (١٠٠٢)

الطبعة الثالثة ١٤٣٨هـ / ٢٠١٧م



التلطف في بيان مبادئ التصوف

لفضيلة الشيخ العلامة

محمد بن أحمد بن محمد علوه

بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله رب العالمين وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وهو على كل شيء قدير وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ، اللهم صلِّ وسلم عليه وعلى آله وصحبه أجمعين أما بعد ....

فهذه رسالة لطيفة مشتملة على مبادئ التصوف العشرة كتبتها لتكون مدخلاً إلى معرفة التصوف الإسلامي الذي هو ثالث أركان الدين إذ أركان الدين ثلاثة هي : الإيمان – والإسلام – والإحسان وسميت هذه الرسالة (**التلطف في بيان مبادئ التصوف**) .

والله أسأل أن يكتب لها القبول إنه أعظم مأمول وأكرم مسئول وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم .

مدخـــل

سبحانك يا رب لا علم لنا إلا ما علمتنا علمنا ما ينفعنا وانفعنا بما علمتنا وافتح علينا فتوح العارفين إنك أنت الفتاح العليم .

اللهم إنا نعوذ بك من علم لا ينفع وقلب لا يخشع وعين لا تدمع ونفس لا تشبع ودعوة لا تسمع فأجرنا عزّ جارك وأعذنا فإنا بك نعوذ وإليك نفزع لا ملجأ لنا ولا منجا منك إلا إليك يا رب العـــالمين آمـــين اللهم آمين .

وبعد اعلم أخي الحبيب أن المبادئ هي الجوامع التي تمكن النـــاس من تصوّر الشيء قبل الشروع فيه ليضبطوا مسائله الكثيرة ويكونوا في تطلبها على بصيرة ومبادئ العلوم عشرة هي :

(١) **الاسم** . (٢) **الحد** . (٣) **الموضوع** . (٤) **الواضع** . (٥) **الإستمداد** . (٦) **الحكم** . (٧) **المسائل** . (٨) **النسبة** . (٩) **الفضل** . (١٠) **الثمرة** .

فإذا أراد الإنسان أن يتعرف على أي علم من العلـــوم فطريقـــه لذلك أن يتعرف على مبادئه العشرة المذكورة ونحن نريد في هذه الرسالة أن نتعرف على علم التصوف الإسلامي من خلال شرحنا لمبادئه العشرة في فصول عشرة حتى تتضح لنا صورة التصوف الإسلامي الـــذي هـــو ثالث أركان الدين ونختم ببعض أقوال العلماء في التصـــوف والصـــوفية رحمهم الله تعالى وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين .

الفصل الأول : في بيان الاسم

اسم هذا العلم التصوف الإسلامي وهو لقب علمي لمقام الإحسان الذي هو أحد مراتب الدين الثلاثة الواردة في حديث أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال : (بينما نحن جلوسٌ عند رسول الله ﷺ ذات يوم إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب شديد سواد الشعر لا يرى عليه أثر السفر ولا يعرفه منا أحد حتى جلس إلى النبي ﷺ فأسند ركبتيه إلى ركبتيه ووضع كفيه على فخذيه وقال : يا محمد أخبرني عن الإسلام . فقال رسول الله ﷺ : (الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله وتقيم الصلاة وتؤتي الزكاة وتصوم رمضان وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلا) . قال : صدقت. فعجبنا[١] له يسأله ويصدقه .

قال : فأخبرني عن الإيمان قال : (أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره وشره) قال : صدقت قال فأخبرني عن الإحسان . قال :(أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك) قال : فأخبرني عن الساعة. قال : (ما المسئول عنها بأعلم من السائل) قال : فأخبرني عن أمارتها .

قال : (أن تلد الأمة ربتها) – وفي رواية ربها – وأن ترى الحفاة العراة العالة رعاء الشاء يتطاولون في البنيان) قال : ثم انطلق فلبثت

---

[١] سبب التعجب هو أن التصديق يكون بعد العلم والسؤال يكون قبل العلم والجاهل بالشيء كيف يصدق لأن التصديق يكون من الخبير العالم ولذا قال فعجبنا.

ملياً[1]، ثم قال : (يا عمر أتدري من السائل ؟) قلـــت : الله ورســـوله أعلم . قال : (فإنه جبريل أتاكم يعلمكـــم ديـــنكم) . رواه مســـلم في صـــحيحه واللفـــظ لـــه ورواه البخـــاري في صـــحيحه مختصـــراً عن أبي هريرة ﷺ .

وقد قرر العلماء من هذا الحديث العظيم الذي جاء جبريل يعلمنا فيه ديننا الملقب بأم السنة لاشتماله على مراتب الدين وعلامات الساعة قرر العلماء منه أن الدين الحنيف بني على ثلاثة مراتب يـــرتبط بعضـــها ببعض هي : الإسلام والإيمان والإحسان .

وقد لقب العلماء مباحث مسائل الإيمان : بالتوحيد والعقيـــدة . ولقبوا مباحث أحكام الإسلام : بالفقه . ولقبوا مباحث مسائل الإحسان : بالتصوف.

فالتصوف كما يقول سيد الطائفة الإمام أبو القاسم الجنيـــد بـــن محمد ت٢٩٧هـــ رحمه الله : هو صفاء المعاملة مع الله عز وجل .ا.هـــ .

وقد لقب بعض العلماء هذا العلـــم بالزهـــد وآخـــرون بـــالفقر وآخرون بالآداب وآخرون بالأخلاق وآخرون بالتزكية وآخرون بتصفية الباطن وآخرون بالتربية الروحية وآخرون بالإحسان .

---

(١) ملياً بتشديد الياء ومعناه : وقتاً طويلاً، وفي رواية أبي داود والترمذي أنه قال ذلك بعد ثلاث أفاده النووي رحمه الله .

وكلها تعابير صحيحة وجيّدة ولكن الجماهير من العلماء والسواد الأعظم من المسلمين اصطلحوا على تسمية هذا العلم : بالتصوف الإسلامي .

وقد أُحدِث هذا الاسم في عهد التابعين أو تابعي التابعين تمييزاً للزهاد والعباد من أهل السنة والجماعة عن غيرهم .

فإن قيل لماذا لم يتسمَّ الصحابة بهذا الاسم قلنا الصحابة رضي الله عنهم فازوا بشرف الصحبة ولا شرف أفضل منها لذلك سُمّوا بالصحابة ولم يحتاجوا بعد ذلك لتسمية أخرى .

وقد بيّن ذلك الإمام القشيري المتوفى ٤٦٥هـ في رسالته بقوله رحمه الله :

اعلموا رحمكم الله تعالى أن المسلمين بعد رسول الله لم يتسمَّ أفاضلهم في عصرهم بتسميةٍ عَلَم سوى صحبة رسول الله ﷺ إذ لا فضيلة فوقها فقيل لهم : الصحابة .

ولما أدركهم أهل العصر الثاني سُمّي من صحب الصحابة : التابعين ورأوا في ذلك أشرف سمة – أي علامة – ثم قيل لمن بعدهم : أتباع التابعين .

ثم اختلف الناس وتباينت المراتب فقيل لخواص الناس ممن لهم شدة عناية بأمر الدين : الزهاد والعباد . ثم ظهرت البدع وحصل التداعي بين الفرق فكل فريق ادعوا أن فيهم زهاداً فانفرد خواص أهل السنة

المراعون أنفاسهم[١] مع الله تعالى الحافظون قلوبهم عن طوارق الغفلة باسم : التصوف . واشتهر هذا الاسم لهؤلاء الأكابر قبل المائتين من الهجرة ا.هـ كلام القشيري رحمه الله .

وقال العلامة أبو نصر السراج المتوفى ٣٧٨هـ في كتابه اللمع في التصوف ما نصه : إن سأل سائل فقال : لم نسمع بذكر الصوفية في أصحاب رسول الله ﷺ ورضي الله عنهم أجمعين ولا فيمن كان بعدهم ولا نعرف إلا العباد والزهاد والسيَّاحين والفقراء وما قيل لأحد من أصحاب رسول الله ﷺ صوفي .

فنقول وبالله التوفيق : الصحبة مع رسول الله ﷺ لها حرمة وتخصيص من شمله ذلك فلا يجوز أن يعلق عليه اسم على أنه أشرف من الصحبة وذلك لشرف رسول الله وحرمته ألا ترى أئمة الزهاد والعباد والمتوكلين والفقراء والراضين والصابرين والمخبتين وغير ذلك وما نالوا جميع ما نالوا إلا ببركة الصحبة مع رسول الله ﷺ فلما نُسبوا الصحبة التي هي أجلّ الأحوال استحال أن يفضلوا بفضيلة غير الصحبة التي هي أجل الأحوال وبالله التوفيق .

وأما قول القائل : أنه اسم محدث أحدثه البغداديون فمحال لأن في وقت الحسن البصري رحمه الله كان يعرف هذا الاسم وكان الحسن قد أدرك جماعة من أصحاب رسول الله ﷺ ورضي الله عنهم ، وقد روي عنه

---

(١) الدائمون على الاشتغال بالعبادة مع مراقبة فلا يخرج لهم نفس إلا حاسبوا أنفسهم عليه .

أنه قال : رأيت صوفياً في الطواف فأعطيته شيئاً فلم يأخذه . وقال : معي أربعة دوانيق فيكفيني ما معي .

وروي عن سفيان الثوري رحمه الله أنه قال : لولا أبو هاشم الصوفي ما عرفت دقيق الرياء[1] .

وقد ذكر في الكتاب الذي جمع فيه أخبار مكة عن محمد بن إسحاق بن يسار وعن غيره يذكر فيه حديثاً أنه قبل الإسلام قد خلت مكة في وقت من الأوقات حتى كان لا يطوف بالبيت أحد وكان يجيئ من بلد بعيد رجل صوفي فيطوف بالبيت وينصرف فإن صح ذلك فإنه يدل على أنه قبل الإسلام كان يعرف هذا الاسم وكان ينسب إليه أهل الفضل والصلاح . والله اعلم . ا.هـ .كلام اللمع وذكر الكندي – وهو من أهل القرن الرابع – في كتابه ولاة مصر في حوادث سنة المائتين أنه ظهر بالإسكندرية طائفة يسمّون بالصوفية يأمرون بالمعروف .

فتلخص لك من هذه النقول أن التصوف كمضمون جاء به الوحي فهو مقام الإحسان وأن تلقيب هذا العلم باسم التصوف حادث حدث كغيره من أسماء العلوم لتمييز بعضها عن بعض كما أن التصوف صار عَلماً على الزهاد والعباد من أهل السنة والجماعة .

قال العلامة ابن خلدون رحمه الله في مقدمته :

---

[1] قال في كشف الظنون أول من سمى الصوفي أبو هاشم الصوفي المتوفي سنة خمسين ومائة هجرية . ا.هـ .

وهذا العلم – يعني التصوف – من العلوم الشرعية الحادثة في الملّة وأصله أن طريقة هؤلاء القوم لم تزل عند سلف الأمـــة وكبارهـــا مـــن الصحابة والتابعين ومن بعدهم طريقة الحق والهداية وأصـــلها العكـــوف على العبادة والانقطاع إلى الله عز وجل والإعراض عن زخرف الـــدنيا وزينتها والزهد فيما يقبل عليه الجمهور من لذة ومال وجاه والانفـــراد عن الخلق والخلوة للعبادة وكان ذلك عامّاً في الصحابة والسلف فلمـــا فشا الإقبال على الدنيا في القرن الثاني وما بعده وجنح الناس إلى مخالطة الدنيا اختص المقبلون على العبادة باسم التصوف .ا.هـــ .

فانظر إلى تقرير ابن خلدون رحمه الله أن ظهور التسمية بالتصوف والصوفية كانت نتيجة جنوح الناس إلى مخالطة الدنيا وأهلها في القـــرن الثاني الهجري فإن ذلك من شأنه أن يتخذ المقبلون على العبـــادة اسمـــاً يميزهم عن عامة الناس الذين ألهتهم الحياة الدنيا الفانية .

ومن هنا نعلم أن اسم التصوف استحدث كغيره من المصطلحات المحدثة لكثير من العلوم الإسلامية ولكن مسمّاه ومعناه ومضمونه ومبناه جاءت به الشريعة الإسلامية وقرره الوحي كتاباً وسنة وتلقاه الصـــحابة عن رسول الله ﷺ فهو لب الشريعة وكان عليه عمل الصـــحابة ومـــن تبعهم بإحسان إذ أن مسمّى التصوف لا يعدو كونه ســـعياً إلى تزكيـــة النفس من الأوضار العالقة بها عادة كالحسد والتكبر وحب الدنيا وحب الجاه وأشباه ذلك من الأمراض وهو كذلك يسعى للارتقـــاء بالمســـلم في مقامات القرب من الله عز وجل بتحلية القلب بالحب لله عز وجـــل

والإخلاص له والرضا عنه والتوكل عليه وأشباه ذلك من الصفات الحميدة الموصلة إلى القلب السليم .

ولذلك قال العلامة المحقق ابن عجيبة رحمه الله : التصوف لب الإسلام .

وصدق فيما قال رحمه الله فاحرص أيها الصوفي المنتسب إلى السادة الصوفية الكرام رضي الله عنهم من التحقق بمضمون التصوف والعمل بمعناه الذي هو لب الإسلام ودرجة الإحسان ولا تقف عند الاسم وتترك المسمّى والمضمون فهذا ما حذر منه الصوفية رحمهم الله تعالى .

سُئل الإمام الصوفي أبو الحسن البُوشَنْجي المتوفى ٣٤٨هـ عن التصوف . فقال : اسم ولا حقيقة وقد كان قبل حقيقة ولا اسم .ا.هـ

ومعنى كلامه ﷺ أن التصوف أضحى في زمنه اسما تجرد عن المسمّى والمضمون وكان قبل ذلك حقيقة ومعنى ولا اسم إذ أن اسم التصوف حادث حدث عند حدوث مصطلحات كثيرة من العلوم الإسلامية والله أعلم .

الفصل الثاني : في بيان الحد [1]

ذكر العلماء رحمهم الله تعالى تعاريف كثيرة للتصوف ترجع كلها إلى أن التصوف يعني صدق التوجه إلى الله عز وجل وهاك طائفة من التعاريف لتزداد بها بصيرة .

قال الإمام أبو عبد الله الرازي رحمه الله : التصوف : استقامة الأحوال مع الحق عز وجل .

وقال الإمام الشبلي رحمه الله : التصوف : ضبط حواسك ومراعاة أنفاسك .

وقال الإمام أبو الحسن الشاذلي رحمه الله : التصوف : تدريب النفس على العبودية وردها لأحكام الربوبية .

وسُئل الشيخ أبو محمد الجريري رحمه الله عن التصوف فقال : الدخول في كل خُلق سني والخروج من كل خُلق دني.

وقال الشيخ أبو حفص رحمه الله : التصوف : كله آداب لكل وقت أدب ولكل مقام أدب فمن لزم آداب الأوقات بلغ مبلغ الرجال ومن ضيَّع الآداب فهو بعيد من حيث يظن القرب ومردود من حيث يرجو القبول .

---

[1] الحد : هو القول المعرب عن ماهية الشيء .

وقال الشيخ أحمد زروق رحمه الله : التصوف : علم قصد به صلاح القلوب وإفرادها لله تعالى مما سواه .

وقال المزين رحمه الله : التصوف : هو الانقياد للحق .

وقال السيد الشريف الجرجاني رحمه الله : التصوف : هو وقوف مع الآداب الشرعية ظاهراً وباطناً.

وقال القاضي شيخ الإسلام زكريا الأنصاري رحمه الله : التصوف : علم تعرف به أحوال تزكية النفوس وتصفية الأخلاق وتعمير الظاهر والباطن لنيل السعادة الأبدية .

وقال الشيخ حاجي خليفة رحمه الله : التصوف : علم يعرف به كيفية ترقي أهل الكمال من النوع الإنساني في مدارج سعادتهم .

وقال ابن عجيبة رحمه الله : التصوف : هو علم يعرف به كيفية السلوك إلى حضرة ملك الملوك وتصفية البواطن من الرذائل وتحليتها بأنواع الفضائل .

وقال العلامة محمد حسنين مخلوف رحمه الله : التصوف : هو تربية علمية وعملية للنفوس وعلاج لأمراض القلوب وغرس للفضائل واقتلاع للرذائل وقمع للشهوات والتدريب على الصبر والرضا والطاعات .

وقال العلامة الشرباصي رحمه الله : التصوف الإسلامي القويم : هو أن يبلغ المؤمن درجة الإحسان التي هي أعلى الدرجات بالتوجه إلى الله

عز وجل والتي يشير إليها قول الله عز وجــل :﴿ وَٱلَّذِينَ جَـٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾ [العنكبوت: ٦٩] .

فهذه طائفة من التعاريف عرضناها لك وهي قليل من كـــثير ولأن التصوف يعني تذوق حلاوة الإيمان سيبقى غامضاً عند من لم يذقــه وفي هذا قيل :

علـــم التصـــــوف علـــم ليس يعرفـــه   إلا أخـــو فطنـــة بالحـــق معـــــــروف
ولـــيس يعـــرفــــــه من ليس يشهــــــده   وكـــيـــف يـــشهد ضـــوء الشمس مكفوف

وقال القاضي ابن بنت الميلق رحمه الله في حال السلوك :

من ذاق طعم شراب القوم يدريه   ومن دراه غدا بالـــروح يشريــه

الفصل الثالث : في موضوع علم التصوف

موضوع علم التصوف : أعمال الظاهر والباطن من حيث التخلية والتحلية .

والتخلية : تعني تهذيب النفس وتصفيتها من مساوئها .

والتحلية : تعني إتمام مكارم الأخلاق .

فتمييز طيب الأعمال ظاهراً وباطناً من الخبيث ثم العمل على التخلي والتحلي والازدياد من الطيب والبُعد والتخلص والتبري من الخبيث هو موضوع علم التصوف.

قال تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ﴾ [الأعراف : ٣٣] .

وقال تعالى : ﴿ وَلَا تَقْرَبُواْ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ﴾ [الأنعام : ١٥١]

وقال عز وجل : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴾ [الأعراف : ٢٠١] .

وقال عز وجل : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴾ [الشمس : ٩ – ١٠].

ويقول ﷺ : " ألا إن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب " رواه البخاري ومسلم .

ويقول ﷺ : " إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل أمرئ ما نوى " متفق عليه. ويقول ﷺ : " إن الله لا ينظر إلى أجسادكم ولا إلى صوركم ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم " رواه مسلم .

وقال الإمام الجنيد رحمه الله : التصوف : استعمال كل خلق سني وترك كل خلق دني . وفي رواية عن الجنيد رحمه الله : التصوف : العلو إلى كل خلق شريف والعدول عن كل خلق دني .

وقال الإمام مظفر القرميسيني المتوفى (٢٨٩هـ) : التصوف : الأخلاق المرضية .

قال العلامة أمين الكردي ﷺ (١٣٣٢هـ) : ينبغي لك أن تتخلى عن الأوصاف الذميمة ؛ لأنها نجاسات معنوية ، لا يمكن التقرّب بها إلى الحضرة القدسية الإلهية ، كما لا يمكن التقرّب بالنجاسات الصورية إلى العبادات الإلهية، فلا بد للسالك أن يزكى من جميعها، ويتحلى بالأوصاف الحميدة ا.هـ .

فإن تبين ذلك بقي السؤال عن الأعمال : كيف يتم تخليتها وتحليتها ؟

واجواب مجملاً : إنما يتم ذلك بصحبة شيخ صوفيٍّ متصل السند بسيدنا رسول الله محمد ﷺ ومتابعته على إرشاده جملةً وتفصيلاً .

قال الإمام أبو عبد الرحمن السّلمي ﷺ : التصوف حقيقة كان حيث لم يكن لسان ولا كلام ، وإنما هو بركات تعود على أربابها من جهة الأولياء والمشايخ وتأثير آداب وأخلاق . ا.هـ .

وقال الإمام على محمد الثقفي ﷺ (٣٢٨هـ) : " لو أن رجلاً جمع العلوم كلها، وصحب طوائف الناس، لا يبلغ مبلغ الرجال إلا بالرياضة من شيخ أو إمام أو مودّب ناصح، ومن لم يأخذ أدبه من آمرٍ له وناهٍ، يريه عيوب أعماله، ورعونات نفسه، لا يجوز الاقتداء به في تصحيح المعاملات " ا.هـ .

وقال الإمام أبو عثمان الحِيريُّ ﷺ (٢٩٨هـ) : " من صحب نفسه صحبه العُجبُ، ومن صحب أولياء الله وفق للوصول إلى الطريق إلى الله " ا.هـ .

وقال أبو عبد الله السَّجزي ﷺ : " أنفع شيء للمُريدين صحبة الصالحين، والاقتداء بهم في أفعالهم وأخلاقهم وشمائلهم، وزيارة قبور الأولياء، والقيامُ بخدمة الأصحاب والرفقاء " ا.هـ .

قال أبو بكر الترمذي ﷺ: " من لم تُرضْه أوامر المشايخ وتأديبهم، فإنه لا يتأدب بكتاب ولا سنة " ا.هـ .

وشرط ذلك ما بيّنه الإمام أبو علي الثقفي ﷺ بقولـــه : " مـــن صحب الأكابر على غير طريق الحرمة حرم فوائدهم وبركات نظرهم ، ولا يظهر عليه من أنوارهم شيء " ا.هـــ .

وفي تفصيل ذلك يقول الإمام الحافظ أبـــو نعـــيم الأصـــبهاني ﷺ (٤٣٠هـــ) : " مباني المتصوفة المتحققة في حقائقهم على أركان أربعة :

١- معرفة الله تعالى ، ومعرفة أسمائه وصفاته وأفعاله .

٢- ومعرفة النفوس وشرورها ودواعيها .

٣- ومعرفة وساوس العدو ومكائده ومضاله.

ومعرفة الدنيا وغرورها وتفنينها وتلوينها، وكيـــف الاحتـــراز منـــها والتجافي عنها .

ثم ألزموا أنفسهم بعد توطئة هذه الأبنية : دوام المجاهدة ، وشـــدة المكابدة ، وحفظ الأوقات ، واغتنام الطاعات ، ومفارقـــة الراحـــات ، والتلذذ بما أيدوا به من المطالعات ، وصيانة ما خُصُّوا به من الكرامات .

لا عن المعاملات انقطعوا، ولا إلى التأويلات ركنوا، رغبوا عـــن العلائق، ورفضوا العوائق، وجعلوا الهموم هماً واحداً، ومزايلة الأعراض طارفاً وتالداً اقتدوا بالمهاجرين والأنصار، وفارقوا العُـــروض والعقـــار، وآثروا البذل والإيثار .... فهم الأتقياء الأخفياء، والغربـــاء النجبـــاء، صحّت عقيدتهم فسلمت سريرتهم " . ا.هـــ [الحلية : ص٢٤، ج :١] .

الفصل الرابع : واضع علم التصوف

واضع علم التصوف : هو الله عز وجل أوحاه إلى رسله وأنبيائه وألهمه الخواص من أوليائه، قال الله عز وجل :﴿ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ ۚ ﴾ [الزمر : ٣] .

وقال الله عز وجل : ﴿ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ ﴾ . [البينة : ٥] .

وقال رسول الله ﷺ : (بُعثت لأتمم صالح الأخلاق) رواه أحمد .

الفصل الخامس : استمداد علم التصوف

استمداد التصوف الإسلامي : من القرآن والسنة .

ونصوص أئمة التصوف الدالة على ذلك كثيرة جداً منها :

١) قال الإمام أبو القاسم الجنيد بن محمد سيد هذه الطائفة وإمامهم المتوفى سنة سبع وتسعين ومائتين هجرية (٢٩٧هـ) : من لم يحفظ القرآن ولم يكتب الحديث لا يقتدى به في هذا الأمر – يعني التصوف – لأن علمنا هذا مقيّد بالكتاب والسنة .

وقال رحمه الله : " مذهبنا هذا مقيّد بأصول الكتاب والسنة ".

وقال رحمه الله : " علمنا هذا مشيّد بحديث رسول الله ﷺ ".

وقال رحمه الله : " الطرق كلها مسدودة على الخلق إلا على من اقتفى أثر الرسول ﷺ " ا.هـ من الرسالة القشيرية في ترجمة الإمام الجنيد

٢) قال الإمام أبو الفيض ذو النون المصري المتوفى سنة خمس وأربعين ومائتين (٢٤٥هـ) : " من علامات المحب لله عز وجل متابعة حبيب الله ﷺ في أخلاقه وأفعاله وأوامره وسننه "ا.هـ الرسالة القشيرية

٣) قال الإمام أبو الحسن سرى بن المغلس السقطي المتوفى سنة سبع وخمسين ومائتين هجرية (٢٥٧هـ) : التصوف اسم لثلاث معانٍ

هو الذي لا يطفئ نور معرفته نور ورعه[١] ولا يتكلم بباطن في علم ينقضه عليه ظاهر الكتاب أو السنة ولا تحمله الكرامات على هتك أستار محارم الله . ا.هـ . الرسالة القشيرية

٤) قال الإمام أبو يزيد بن طيفور بن عيسى البسطامي المتوفى سنة إحدى وستين ومائتين هجرية على الأصح (٢٦١هـ) : لو نظرتم إلى الرجل أعطى من الكرامات حتى يرتقي في الهواء فلا تغتروا به حتى تنظروا كيف تجدونه عند الأمر والنهي وحفظ الحدود وأداء الشريعة " . ا.هـ . الرسالة القشيرية .

٥) قال الإمام أبو سليمان عبد الرحمن بن عطية الداراني المتوفى سنة خمس عشرة ومائتين (٢١٥هـ) : " ربما يقع في قلبي النكتة[٢] من نكت القوم أياماً فلا أقبل منه إلا بشاهدين عدلين الكتاب والسنة". ا.هـ الرسالة القشيرية

٦) قال الإمام أبو الحسين أحمد بن علي الحواري المتوفى سنة ثلاثين ومائتين هجرية (٢٣٠هـ) : " من عمل عملاً بلا اتباع سنة رسول الله ﷺ فباطل عمله ". ا.هـ الرسالة القشيرية

---

[١] قال العروسي شارحاً لهذا الكلام : والمعنى أن نور المعرفة الذي من جملته علم ويقين لا يطفئ نور الورع المفيد للاجتهاد وبذل الوسع في الطاعة والعمل فلا يجوز ترك العمل والاعتماد على ما سبق به القضاء .

[٢] كلمة الحكمة .

٧) قال الإمام أبو عثمان سعيد بن إسماعيل الحيري المتوفى سنة ثمان من أمّر السنة على نفسه قولاً وفعلاً نطق بالحكمة ومن أمّر الهوى على نفسه قولاً وفعلاً نطق بالبدعة قال تعالى : ﴿ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهۡتَدُواْ ﴾ [النور: ٥٤] ".ا.هـ . الرسالة القشيرية

وقال رحمه الله :

الصحبة مع الله : بحسن الأدب ودوام الهيبة والمراقبة.

والصحبة مع الرسول ﷺ : بإتباع السنة ولزوم ظاهر العلم .

والصحبة مع أولياء الله تعالى : بالاحترام والخدمة .

والصحبة مع الأهل : بحسن الخلق .

والصحبة مع الإخوان : بدوام البِشر ما لم يكن إثماً .

والصحبة مع الجهّال : بالدعاء لهم والرحمة عليهم .ا.هـ الرسالة القشيرية

وقال أيضاً لولده أبي بكر : خلاف السنة يا بني في الظاهر علامة رياء في الباطن ا.هـ الرسالة القشيرية

٨) قال الإمام أبو الحسين أحمد بن محمد النوري رحمه الله المتوفى سنة خمس وتسعين ومائتين هجرية (٢٩٥هـ) : " من رأيته يدعي مع الله حالة تخرجه عن حد من العلم الشرعي فلا تقربنّ منه ". ا.هـ . الرسالة القشيرية .

٩) قال الإمام أبو العباس أحمد بن محمد بن سهل بن عطاء الآدمي المتوفى سنة تسع وثلاثمائة هجرية (٣٠٩هـ) : " من ألزم نفسه آداب الشريعة نوّر الله قلبه بنور المعرفة ولا مقام أشرف من مقام متابعة الحبيب ﷺ في أوامره وأفعاله وأخلاقه". ا.هـ الرسالة القشيرية

١٠) قال الإمام أبو حمزة البغدادي البزاز المتوفى سنة تسع وثمانين ومائتين هجرية (٢٨٩هـ) : " من علم طريق الحق تعالى سهلَ عليه سلوكه ولا دليل على الطريق إلى الله تعالى إلا متابعة الرسول ﷺ لأحواله وأفعاله وأقواله ". ا.هـ الرسالة القشيرية

١١) قال الإمام أبو إسحاق إبراهيم بن داود الرقي رحمه الله تعالى : " علامة محبة الله إيثار طاعته ومتابعة نبيه ﷺ ". ا.هـ الرسالة القشيرية

١٢) قال الإمام أبو بكر الطمستاني المتوفى بعد سنة أربعين وثلاثمائة رحمه الله : " الطريق واضح والكتاب والسنة قائمان بين أظهرنا وفضل الصحابة رضي الله عنهم معلوم لسبقهم إلى الهجرة ولصحبتهم فمن صحب منا الكتاب والسنة وتغرب[١] عن نفسه والخلق وهاجر بقلبه إلى الله فهو الصادق المصيب ". ا.هـ . الرسالة القشيرية .

١٣) قال الإمام أبو القاسم إبراهيم بن محمد النصرأبادي المتوفى سنة تسع وتسعين وثلاثمائة هجرية (٣٩٩هـ) . رحمه الله تعالى : " أصل

---

(١) بَعُد عنها .

التصوف ملازمة الكتاب والسنة وترك الأهواء والبدع وتعظيم حرمات المشايخ ورؤية أعذار الخلق والمداومة على الأوراد وترك ارتكاب الرخص والتأويلات ". ا.هـ . الرسالة القشيرية

١٤) قال الإمام أبو عمرو محمد بن إبراهيم الزجّاجي المتوفى سنة ثمانٍ وأربعين وثلاثمائة هجرية (٣٤٨هـ) رحمه الله تعالى : " كان الناس في الجاهلية يتبعون ما تستحسنه عقولهم وطبائعهم فجاء النبي ﷺ فردهم إلى الشريعة والإتباع فالعقل الصحيح هو الذي يستحسن محاسن الشريعة ويستقبح ما تستقبحه ". ا.هـ شرح الرسالة القشيرية

١٥) قال الإمام أبو على محمد بن عبد الوهاب الثقفي المتوفى سنة ثمانٍ وعشرين وثلاثمائة هجرية (٣٢٨هـ) رحمه الله تعالى : " لا يقبل من الأعمال إلا ما كان صواباً ومن صوابها إلا ما كان خالصاً ومن خالصها إلا ما كان موافقاً للسنة ". ا.هـ . شرح الرسالة القشيرية .

١٦) قال الإمام أبو حفص عمر بن مسلمة الحداد المتوفى سنة نيّف وستين ومائتين هجرية رحمه الله تعالى : " من لم يزن أفعاله وأحواله في كل وقت بالكتاب والسنة ولم يتهم خواطره فلا نعده في ديوان الرجال". ا.هـ . الرسالة القشيرية .

١٧) قال الإمام محمد السلمي المتوفى سنة أربعمائة واثنا عشر هجرية (٤١٢هـ) رحمه الله تعالى : " ليس بصوفي من جهل أحكام الله تعالى وأحكام رسول الله ﷺ .

١٨) قالت زاهدة دمشق مؤمنة بنت بهلول رحمها الله تعالى : " استفدت هذه الأحوال من إتباع أمر الله وسنة رسوله ﷺ وتعظيم حقوق المسلمين والقيام بخدمة الأبرار الصالحين " ا.هـ ذكر العابدات الصوفيات للإمام عبد الرحمن السُلمي رحمه الله

١٩) قالت العابدة أنيسة بنت عمرو خادمة معاذه العدوية رحمهما الله تعالى : " العمل يجب أن يكون معه ثلاثة أشياء : الإخلاص، والصواب، والسنة ". ا.هـ . مرجع سابق .

٢٠) قالت العابدة الصوفية الحرة فخروية بنت علي النيسابوري رحمها الله تعالى : " من جعل السبب إلى الوصول إلى ربه غير ملازمة طاعته وإتباع سنة رسوله ﷺ فقد اخطأ السبيل إليه ". ا.هـ . مرجع سابق .

٢١) قال الإمام عبد الرحمن السُلمي ﷺ : " أصل التصوف ملازمة الكتاب والسنة وترك الأهواء والبدع وتعظيم حرمات المشايخ ورؤية أعذار الخلق والدوام على الأوراد" . ا.هـ . سير أعلام النبلاء للذهبي .

٢٢) قال سيدي الإمام إبراهيم الدسوقي رحمه الله في كتابه الجوهرة : " يا هذا اسلك طريق الشرع المستقيمة المستوية القويمة والحقيقة الرضية المرضية بشروطها وشروعها وفرائضها وما يجب فيها من فرض أو ندب أو سنة أو حقيقة زكية أو شريعة ظاهرة ثم يجتنب

الحرام في مأكله ومشربه وملبسه ومنكحه ورواحه ومنقلبه ومثواه ونظره وسعيه وبطشه ويكون حافظاً لأوامر الله وسنة رسوله ﷺ ".

٢٣) قال سيدي علي الهيتي رحمه الله تعالى : " الشريعة ما ورد به التكليف والحقيقة ما حصل به التعريف فالشريعة مؤيدة بالحقيقة والحقيقة مقيّدة بالشريعة وكل شريعة بلا حقيقة فهي عاطلة وكل حقيقة لا شريعة لها فهي باطلة " . ا.هـ. جامع أصول الأولياء للكشماخوي رحمه الله .

٢٤) قال سيدي الإمام أبو الحسن الشاذلي رحمه الله تعالى : " من لم يتبحر في علوم الشريعة حتى يصير يقطع أكابر العلماء بالحجج الواضحة في مجلس المناظرة فلا يطلب صحبتنا " وقال أيضاً : من دعا إلى الله تعالى بغير ما دعا به رسول الله ﷺ فهو مدعي" ا.هـ الكوكب الشاهق للشعراني رحمه الله

٢٥) قال سيدي الإمام محمد مهدي الصيادي الرواس رحمه الله : " كل قدوة لم يكن له سهم من آداب المصطفى ﷺ فهو مبعود وكل مقتدٍ لم يكن له سهم من آداب الصحابة الكرام رضي الله عنهم فهو مردود " ا.هـ النفحات الهدائيه على ورد السادات الأحمدية

٢٦) وأختم بهذه العبارة النفيسة جداً لسيدي عبد الوهاب الشعراني رحمه الله في مقدمة كتابه الأخلاق المتبولية قال رحمه الله : "

اعلم أن القوم كلهم قد أجمعوا على أن من خرج عن السنة المحمدية قيد شبر في ملبسه أو مأكله أو منامه أو قوله أو فعله فليس هو من القوم ولو تزيا بزيهم وهم برآء منه في الدنيا والآخرة كما تبرأ المجتهدون كذلك من كل قول يخالف ظاهر الكتاب والسنة وقالوا إذا خالف قولنا ما صح عن رسول الله ﷺ فارموا بقولنا واعملوا بقول رسول الله ﷺ وكان سيدي إبراهيم الدسوقي يقول من لم يحبس نفسه في قمقم الشريعة ويختم عليها بخاتم الحقيقة فليس هو من أتباعنا ولو مشى في ركابنا وكان يقول أول من يتبرأ من الفقراء المبتدعة السهروردية والقادرية والرفاعية وغيرهم مشايخهم يوم القيامة . ا.هـ . كلام الشعراني وهو نفيس للغاية وفيه إجماع الصوفية على أن من خرج عن السنة المحمدية قيد شبر فليس هو من القوم ولو تزيا بزيهم وادّعى أنه منهم فافهم ولا تكن من الغافلين .

٢٧) وقال أبو العباس أحمد الملثم أحد أئمة القوم : لم تكن الأقطاب أقطاباً والأوتاد أوتاداً والأولياء أولياء إلا بتعظيمهم رسول الله ﷺ ومعرفتهم به وإجلالهم لشريعته وقيامهم بآدابه .

فهذا هو التصوف الإسلامي وهذه هي الصوفية التي نعرفها ونرضى بها ونعتقدها فكن من الراشدين .

الفصل السادس : حكم التصوف الإسلامي

سلوك طريق التصوف : واجب شرعي .

قال شيخ مشايخنا العلامة عبد الله بن الصديق الغمارى رحمه الله ما نصه :

" وسلوك طريق التصوف واجب محتم لا يكمل دين المرء إلا به وبيان ذلك من وجوه :

(**الوجه الأول**) : أنه مقام الإحسان الذي هو أحد أركان الدين الثلاثة المبيِّنة في حديث جبريل الطويل ولا شك أن الدين يجب اتباعه بجميع أركانه الإيمان والإسلام والإحسان .

وجاء في إحدى فتاوى والدي ﷺ في هذا الموضوع ما نصه : وأما أول من أسس الطريقة وهل تأسيسها بوحي فلتعلم أن الطريقة أسسها الوحي السماوي في جملة ما أسس من الدين المحمدي إذ هي بلا شك مقام الإحسان الذي هو أحد أركان الدين الثلاثة التي جعلها النبي ﷺ بعد ما بيَّنها واحداً واحداً ديناً فقال : " هذا جبريل جاء يعلمكم دينكم " فغاية ما تدعوا إليه الطريقة وتشير إليه هو مقام الإحسان بعد تصحيح الإسلام والإيمان ، ليحرز الداخل فيها والمدعو إليها مقامات الدين الثلاثة الضامنة لمحرزها والقائم بها السعادة الأبدية في الدنيا والآخرة والضامنة أيضاً لمحرزها كمال الدين ، فإنه كما في الحديث عبارة عن الأركان

الثلاثة فمن أخل بمقام الإحسان الذي هو الطريقة فدينه ناقص بلا شك لتركه ركناً من أركانه ، ولهذا نص المحققون على وجوب الدخول في الطريقة وسلوك طريق التصوف وجوباً عينياً واستدلوا على الوجوب بما هو ظاهر عقلاً ونقلاً ولسنا الآن بصدد بيان ذلك.

وقد بين القرآن العظيم من أحوال التصوف والطريقة ما فيه الكفاية فتكلم على المراقبة والمحاسبة والتوبة والإنابة والذكر والفكر والمحبة والتوكل والرضا والتسليم والزهد والصبر والإيثار والصدق والمجاهدة ومخالفة الهوى والنفس وتكلم عن النفس اللوامة والأمارة والمطمئنة وعلى الأولياء والصالحين والصديقين والمؤيدين وغير هذا مما يتكلم فيه أهل التصوف والطريقة رضي الله عنهم فاعرف وتأمل ا.هـ. وهو نفيس جداً.

(**الوجه الثاني**) : أن التصوف هو العلم الذي تكفل بالبحث عن علل النفوس وأدوائها وبيان علاجها ودوائها لتصل إلى مرتبة الكمال والفلاح وتدخل في ضمن قوله تعالى : ﴿ قَدۡ أَفۡلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴾ (الشمس: ٩) .

ولا شك أن علاج النفس من أمراضها وأدرانها أمر يوجبه الشرع القويم ويستحسنه العقل السليم، ولولا ذلك لما كان هناك فرق بين الإنسان والحيوان .

(**الوجه الثالث**) : أن التصوف عني بتهذيب الأخلاق وتزكيتها ومخالفة هوى النفس والأخذ بعزائم الأمور والارتفاع بالنفس عن حضيض الشهوات إلى حيث تستمتع بما تورثه الطاعة من لذة روحية تصغر بجانبها كل لذة مهما عظم قدرها .

(**الوجه الرابع**) : أن التصوف هو خلق الصحابة والتابعين والسلف الصالح الذين أمرنا بالاقتداء بهم والاهتداء بهديهم .

وقد بين ذلك والدي ﷺ في فتواه التي نقلنا منها آنفاً فقال عقب كلامه السابق ما نصه : " وأما قولك هل لّما أسست الطريقة ... الخ فجوابه يعلم مما قبله فإنها إذا كانت من الدين بل وهي أشرف أركانه وكانت بوحي كما قلناه وكان الصحابة بالحالة التي بلغتنا عنهم تواتراً من المسارعة إلى امتثال أمر الله ، كانوا بالضرورة أول داخل فيها وعامل بمقتضاها وذائق لأسرارها وثمراتها ولهذا كانوا على غاية ما يكون من الزهد في الدنيا والمجاهدة لأنفسهم ومحبة الله ورسوله والدار الآخرة والصبر والإيثار والرضا والتسليم وغير ذلك من الأخلاق التي يحبها الله ورسوله وتوصل إلى قربهما وهي المعبر عنها بالتصوف والطريقة وكما كانوا رضي الله عنهم على هذه الحالة الشريفة كان أتباعهم أيضاً عليها وإن كانوا دونهم فيها ، وكذلك كان أتباع الأتباع وهلم جرا إلى أن ظهرت البدع وتأخرت الأعمال ، وتنافس الناس في الدنيا ، وحييت النفوس بعد موتها فتأخرت بذلك أنوار القلوب ، وقع ما وقع في الدين

وكادت الحقائق تنقلب ، وكان ابتداء ذلك في أواخر المائة الأولى من الهجرة ، ولم يزل ذلك يزيد سنة بعد سنة إلى أن وصل ذلك إلى حالة تخوف منها السلف الصالح على الدين ، فانتدب عند ذلك العلماء لحفظ هذا الدين الشريف فقامت طائفة منهم بحفظ مقام الإسلام وضبط فروعه وقواعده ، وقامت أخرى بحفظ مقام الإيمان وضبط أصوله وقواعده على ما كان عند سلفهم الصالح ، وقامت أخرى بحفظ مقام الإحسان وضبط أعماله وأحواله ، فكان من الطائفة الأولى الأئمة الأربعة وأتباعهم رضي الله عنهم ، وكان من الطائفة الثانية الأشعري وأشياخه وأصحابه، وكان من الثالثة الجنيد وأشياخه وأصحابه، فعلى هذا ليس الجنيد هو المؤسس للطريقة لما ذكرناه من أنها بوحي إلهي وإنما نسبت إليه لتصديه لحفظ قواعدها وأصولها ودعا للعمل بذلك عندما ظهر التأخر عنها، ولهذا السبب نفسه نسبت العقائد للأشعري، والفقه للأئمة الأربعة مع أن الجميع بوحي من الله تعالى . ا.هـ .

وهو تحقيق بالغ يعلم منه أن ما يسمى الآن تصوفاً وطريقة لم يتجاوز ما كان عليه الصحابة والتابعون من الأخلاق الفاضلة والصفات الجميلة التي حض الله ورسوله على التخلق بها ومدحا أصحابها في غير آية وحديث .

(**الوجه الخامس**) : أن في سلوك الطريق صحبة المشايخ الكمل والاقتداء بهم والاهتداء بهديهم وقد أمر الله بذلك في قوله تعالى : ﴿ وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ﴾.(لقمان : ١٥) .

قال الإمام زروق : والإنابة لا تكون إلا بعلم واضح وعمل صحيح وحال ثابت لا ينقضه كتاب ولا سنة.

(**الوجه السادس**) : أن سلوك الطريق ينور بصيرة الشخص ويسمو بهمته حتى لا يبقى له تعلق إلا بالله ولا يكون له اعتماد إلا عليه فيصير مصون السر عن الالتفات إلى الخلق مرفوع الهمة عن تأميلهم اكتفاء بالحق متحققاً بالحقيقة في جميع الأحوال متوسماً بالشريعة في الأقوال والأفعال ، هذا أعلى ما يطلب من المؤمن وإليه أشار عليه الصلاة والسلام بقوله لابن عباس رضي الله عنهما :{ إذا سألت فأسأل الله وإذا استعنت فاستعن بالله }. وبايع الصحابة منهم ثوبان مولاه والصديق صاحبه على ألا يسألوا الناس شيئا وذلك لرفع الهمه عن الخلق والاكتفاء بالالتجاء إلى الله.

(**الوجه السابع**) : أن في سلوك الطريق بصحبة شيخ مرشد عارف خروجاً من رعونات النفس وحماية للمريد من كل ما يمنعه من الوصول إلى الله تعالى من أنواع الجهل والغرور ودواعي الهوى الموقعة في ظلمة القلب وإطفاء النور .

ولهذا قال ابن عطاء الله في لطائف المنن : " شيخك هو الذي أخرجك من سجن الهوى ودخل بك على المولى، شيخك هو الذي ما زال يجلو مرآة قلبك حتى تجلى فيه أنوار ربك، نهض بك إلى الله فنهضت إليه وسار بك حتى وصلت إليه ولا زال محاذياً لك حتى ألقاك بين يديه فزج بك في نور الحضرة وقال ها أنت وربك " . ا.هـ .

وقال أيضاً إنما يكون الاقتداء بوليٍّ دَلَّكَ الله عليه وأطلعك على ما أودعه من الخصوصية لديه فطوى عنك شهود بشريته في وجود خصوصيته، فألقيت إليه القياد فسلك بك سبيل الرشاد، يعرفك برعونة نفسك ويدلك على الجمع على الله ، ويعلمك الفرار عما سوى الله، ويسايرك في طريقك حتى تصل إلى الله، يوقفك على إساءة نفسك، ويعرفك بإحسان الله إليك فيفيدك معرفة إساءة نفسك الهرب منها وعدم الركون إليها، ويفيدك العلم بإحسان الله إليك الإقبال عليه والقيام بالشكر إليه، والدوام على ممر الساعات بين يديه .

قال : فإن قلت فأين مَنْ هذا وصفه لقد دللتني على أغرب من عنقاء مغرب، فاعلم أنه لا يعوزك وجدان الدالين وإنما يعوزك وجدان الصدق في طلبهم جد صدقاً تجد مرشداً وتجد ذلك في آيتين من كتاب الله تعالى قال الله سبحانه : ﴿ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ ﴾. (النمل: ٦٢) .

وقال تعالى : ﴿ فَلَوْ صَدَقُواْ ٱللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ﴾(محمد: ٢١) .

فلو اضطررت إلى من يوصلك إلى الله اضطرار الظمآن إلى المـــاء، والخائف إلى الأمن، لوجدت ذلك أقرب إليك من وجود طلبـــك ولـــو اضطررت إلى الله اضطرار الأم لولدها إذا فقدته، لوجدت الحق منـــك قريباً ولك مجيباً ولوجدت الوصل غير متعذر عليك ولتوجه الحق بتيسير ذلك عليك. ا.هــ .

(**الوجه الثامن**) : أن في سلوك الطريق الأكثـار مـن ذكـر الله والاستعانة بصحبة الشيخ على ذلـك ولا شـك أن الـذكر يصـفي القلوب، ويدعو إلى اطمئنانه كما قـال تعـالى : ﴿ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴾. (الرعد: ٢٨) .

وكل أمر أمر الله بـه في القـرآن جعـل لـه حـداً وشـرطاً ونهاية إلا الذكر فإن الله تعالى لم يقيده بحد ولا شرط ولا نهاية حيث قال تعـالى : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴾ (الأحزاب: ٤١ – ٢٨) .

فلهذه الوجوه التي ذكرناها وغيرها كان سلوك طريق التصـوف واجباً والانخراط في سلك أهله أمراً لازماً ونحن لا ننكر أنـه دخـل في الطريق دخلاء أدعياء وجهلاء أغبياء اتخذوا الطريق سـلماً لتحصـيل أغراضهم وشهواتهم وابتدعوا فيه بدعاً ما أنزل الله بها مـن سـلطان وزعمـوا أنهـم أهـل الحقيقـة يجـوز لهـم مـا يكـون محرمـاً في الشريعة وكذبوا فإن الشريعة والحقيقة صنوان وما خالفت الشـريعة

الحقيقة قط إلا في نظر جاهل فمثل هؤلاء ليسوا من الصوفية في شـيء أول من يبرأ منهم الصوفية ومن الظلم البين أن يعترض بعض الناس بفعل هؤلاء الجهلة ويجعله حجة على التصوف والصـوفية فمـا التصـوف إلا اتباع الكتاب والسنة وما الصـوفية إلا قـوم جاهـدوا أنفسـهم في الله فهـداهم الله ﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ (العنكبوت: ٦٩) .ا.هـ . كلام الإمام الغمـاري مـن كتابه حسن التلطف في بيان وجوب سلوك التصوف.

أقول : ومما يدل على وجوب سلوك التصـوف قولـه تعـالى : ﴿ فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ ﴾ (هود: ١١٢) .

وقوله تعـالى:﴿ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ ﴾ (البينة: ٥) .

قال حجة الإسلام الغزالي رحمه الله : " الدخول مع الصوفية فرض عين إذ لا يخلو أحد من عيب إلا الأنبياء عليهم الصلاة والسلام" ا.هـ .

وقال الإمام الجنيد : " إذا وفق الله المريد ألقاه إلى الصوفية " ا.هـ.

وقال أبو الحسن الشاذلي : " من لم يتغلغل في علمنا هذا مات مصراً على الكبائر وهو لا يشعر " . ا.هـ .

وقال الإمام أبو بكر البغدادي : " مـن لم ينظـر في التصـوف فهو غبي " ا.هـ .

وأقول : مما يدل على وجوب سلوك التصوف ما ذكره العلامة الصوفي الشيخ عبد القادر عيسى رحمه الله في كتابه حقائق عن التصوف بقوله : " إن التكاليف الشرعية التي أمر بها الإنسان في خاصة نفسه ترجع إلى قسمين : أحكام تتعلق بالأعمال الظاهرة. وأحكام تتعلق بالأعمال الباطنة .

أو بعبارة أخرى : أحكام تتعلق ببدن الإنسان وجسمه وأعمال تتعلق بقلبه.

فالأعمال الجسمية نوعان : أوامر ونواهٍ .

فالأوامر الإلهية هي : كالصلاة والزكاة والحج ...

وأما النواهي فهي : كالقتل والزنا والسرقة وشرب الخمر ...

وأما الأعمال القلبية فهي أيضاً : أوامر ونواهٍ .

أما الأوامر : فكالإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله ... وكالإخلاص والرضا والصدق والخشوع والتوكل...

وأما النواهي : فكالكفر والنفاق والكبر والعجب والرياء والغرور والحقد والحسد...

وهذا القسم الثاني المتعلق بالقلب أهم من القسم الأول عند الشارع – وإن كان الكل مهماً – لأن الباطن أساس الظاهر ومصدره،

وأعماله مبدأ أعمال الظاهر، ففي فساده إخلال لقيمة الأعمال الظاهرة وفي ذلك قال تعالى : ﴿ فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴾ (الكهف: ١١٠) .

ولهذا كان رسول الله ﷺ يوجه اهتمام الصحابة لإصلاح قلوبهم، ويبين لهم أن صلاح الإنسان متوقف على إصلاح قلبه وشفائه من الأمراض الخفية والعلل الكامنة، وهو الذي يقول : { ألا وإن في الجسد مُضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب } . رواه البخاري في كتاب الإيمان. ومسلم في كتاب المساقاة عن النعمان بن بشير رضي الله عنهما .

كما كان عليه السلام يعلمهم أن محل نظر الله إلى عباده إنما هو القلب : {إن الله لا ينظر إلى أجسادكم ولا إلى صوركم، ولكن ينظر إلى قلوبكم }.أخرجه مسلم في صحيحه في كتاب البر والصلة عن أبي هريرة رضي الله عنه .

فما دام صلاح الإنسان مربوطاً بصلاح قلبه الذي هو مصدر أعماله الظاهرة، تعيَّن عليه العمل على إصلاحه بتخليته من الصفات المذمومة التي نهانا الله عنها، وتحليته بالصفات الحسنة التي أمرنا الله بها وعندئذ يكون القلب سليماً صحيحاً، ويكون صاحبه من الفائزين الناجين ﴿ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾ . (الشعراء: ٨٨ – ٨٩) .

قال الإمام جلال الدين السيوطي رحمه الله : " وأما علم القلب ومعرفة أمراضه من الحسد والعجب والرياء ونحوها، فقال الغزالي : إنها فرض عين " [الأشباه والنظائر للسيوطي صـ ٥٠٤].

فتنقية القلب، وتهذيب النفس من أهم الفرائض العينية وأوجب الأوامر الإلهية ، بدليل ما ورد في الكتاب والسنة وأقوال العلماء :

أ) فمن الكتاب :

- قوله تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ﴾(الأعراف: ٣٣).
- وقوله تعالى : ﴿ وَلَا تَقْرَبُواْ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ﴾ (الأنعام : ١٥١)

والفواحش الباطنة كما قال المفسرون هي : الحقد والرياء والحسد والنفاق .

ب) ومن السنة :

- كل الأحاديث التي وردت في النهي عن الحقد والكبر والرياء والحسد.. وأيضاً الأحاديث الآمرة بالتحلي بالأخلاق الحسنة والمعاملة الطيبة فلتراجع في مواضعها.

- والحديث : { الإيمان بضع وسبعون شعبة : فأعلاها قول لا إله إلا الله ، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق، والحياء شعبة من الإيمان}. أخرجه البخاري ومسلم في صحيحهما في كتاب الإيمان عن أبي هريرة ﷺ .

فكمال الإيمان بكمال هذه الشعب والتحلي بها، وزيادته بزيادة هذه الصفات، ونقصه بنقصها، وإن الأمراض الباطنة كافية لإحباط أعمال الإنسان ، ولو كانت كثيرة .

ج) **وأما أقوال العلماء** :

لقد عدَّ العلماء الأمراض القلبية من الكبائر التي تحتاج إلى توبة مستقلة، قال صاحب (جوهرة التوحيد) : "

ووأمر بعرف واجتنب نميمة   و غيبة وخصلة ذميمة
كالعجب والكبر وداء الحسد   وكالمراء والجدل فاعتمد

يقول شارحها عند قوله – وخصلة ذميمة – : أي واجتنب كل خصلة ذميمة شرعاً، وإنما خص المصنف ما ذكره بعد اهتماماً بعيوب النفس، فإن بقاءها مع إصلاح الظاهر كلبس ثياب حسنة على جسم ملطخ بالقاذورات، ويكون أيضاً كالعجب وهو رؤية العبادة واستعظامها، كما يعجب العابد بعبادته والعالم لعلمه، فهذا حرام وكذلك الرياء فهو حرام. ومثل العجب الظلم والبغي والكبر وداء

الحسد والمراء والجدل . [شرح الجوهرة للباجوري ص١٢٠-١٢٢ توفي سنة ١٢٧٧هـ].

ويقول الفقيه الكبير العلامة ابن عابدين في حاشيته الشهيرة : { إن علم الإخلاص والعجب والحسد والرياء فرض عين، ومثلها غيرها من آفات النفوس، كالكبر والشح والحقد والغش والغضب والعداوة والبغضاء والطمع والبخل والبطر والخيلاء والخيانة والمداهنة، والاستكبار عن الحق والمكر والمخادعة والقسوة وطول الأمل، ونحوها مما هو مبين في ربع المهلكات من "الإحياء" قال فيه : ولا ينفك عنها بشر، فيلزمه أن يتعلم منها ما يرى نفسه محتاجاً إليه .

وإزالتها فرض عين، ولا يمكن إلا بمعرفة حدودها وأسبابها وعلاماتها وعلاجها، فإن من لا يعرف الشر يقع فيه ["حاشية ابن عابدين" المسماة رد المحتار على الدر المختار شرح تنوير الأبصار، ج١/ص٣١].

ويقول صاحب "الهدية العلائية" : (وقد تظاهرت نصوص الشرع والإجماع على تحريم الحسد، واحتقار المسلمين، وإرادة المكروه بهم، والكبر والعجب والرياء والنفاق، وجملة الخبائث من أعمال القلوب، بل السمع والبصر والفؤاد، كل ذلك كان عنه مسؤولاً، مما يدخل تحت الاختيار) [الهدية العلائية علاء الدين عابدين ص٣١٥] .

ويقول صاحب "مراقي الفلاح" : (لا تنفع الطهارة الظاهرة إلا مع الطهارة الباطنة بالإخلاص والنزاهة عن الغل والغش والحقد

والحسد، وتطهير القلب عما سوى الله من الكونين، فيعبده لذاته لا لعلة ، مفتقراً إليه ، وهو يتفضل بالمن بقضاء حوائجه المضطر بها عطفاً عليه، فتكون عبداً فرداً للمالك الأحد الفرد ، لا يسترقك شيء من الأشياء سواه، ولا يستملكك هواك عن خدمتك إياه.

قال الحسن البصري رحمه الله :

رُبَّ مستور سبته شهوتُهْ قد عري من ستره وانْهَتَكَا

صاحبُ الشهوةٍ عبدٌ فإذا مَلَكَ الشهوة أضحى مَلِكا

فإذا أخلص لله، وبما كلفه به وارتضاه، قام فأدَّاه، حفَّته العناية حيثما توجه وتيمَّم، وعلَّمه ما لم يكن يعلم .

قال الطحاوي في "الحاشية" : دليله قوله تعالى : {واتقوا الله ويعلِّمكم الله} البقرة: ٢٨٢ . حاشية الطحاوي على مراقي الفلاح شرح نور الإيضاح ص٧٠-٧١ .

فكما لا يحسن بالمرء أن يظهر أمام الناس بثياب ملطخة بالأقذار والأدران ، لا يليق به أن يترك قلبه مريضاً بالعلل الخفية، وهو محل نظر الله سبحانه وتعالى .

تطبِّبُ جسمك الفاني ليبقى وتترك قلبك الباقي مريضاً لأن الأمراض القلبية سبب بُعد العبد عن الله تعالى، وبعده عن جنته الخالدة

قال رسول الله ﷺ : { لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر}. رواه مسلم في صحيحه في كتاب الإيمان عن ابن مسعود ﷺ .

وعلى هذا فسلامة الإنسان في آخرته هي في سلامة قلبه، ونجاتُه في نجاته من أمراضه المذكورة .

وقد تخفى على الإنسان بعض عيوب نفسه، وتدق عليه علل قلبه، فيعتقد في نفسه الكمال، وهو أبعد ما يكون عنه، فما السبيل إلى اكتشاف أمراضه، والتعرف على دقائق علل قلبه ؟ وما الطريق العملي إلى معالجة هذه الأمراض ، والتخلص منها ؟

إن التصوف هو الذي اختص بمعالجة الأمراض القلبية، وتزكية النفس والتخلص من صفاتها الناقصة.

قال ابن زكوان في فائدة التصوف وأهميته :

علمٌ به تصفيةُ البواطنْ مِن كدَرَات النفس في المواطنْ

قال العلامة المنجوري في شرح هذا البيت : " التصوف علم يعرف به كيفية تصفية الباطن من كدرات النفس ، أي عيوبها وصفاتها المذمومة كالغل والحقد والحسد والغش وحب الثناء والكبر والرياء والغضب والطمع والبخل وتعظيم الأغنياء والاستهانة بالفقراء، لأن علم التصوف يطلع على العيب والعلاج وكيفيته، فبعلم التصوف يُتوصل إلى قطع عقبات النفس والتنزه عن أخلاقها المذمومة وصفاتها الخبيثة، حتى يتوصل بذلك إلى تخلية القلب عن غير الله تعالى، وتحليته بذكر الله

سبحانه وتعالى ["النصرة النبوية" للشيخ مصطفى إسماعيل المدني على هامش شرح الرائية للفاسي صـ٢٦].

أما تحلية النفس بالصفات الكاملة، كالتوبة والتقوى والاستقامة والصدق والإخلاص والزهد والورع والتوكل والرضا والتسليم والأدب والمحبة والذكر والمراقبة ... فللصوفية بذلك الحظ الأوفر من الوراثة النبوية في العلم والعمل .

قد رفضوا الآثامَ والعيوبا وطهَّروا الأبدانَ والقلوبا
وبلغوا حقيقة الإيمان وانتهجوا مناهج الإحسان

[الفتوحات الإلهية في شرح المباحث الأصلية" للعلامة ابن عجيبة على هامش شرح الحكم لابن عجيبة ج١/صـ١٠٥] .

فالتصوف هو الذي اهتم بهذا الجانب القلبي بالإضافة إلى ما يقابله من العبادات البدنية والمالية، ورسم الطريق العملي الذي يوصل المسلم إلى أعلى درجات الكمال الإيماني والخلقي، وليس – كما يظن بعض الناس – قراءة أوراد وحلق أذكار فحسب، فلقد غاب عن أذهان الكثيرين، أن التصوف منهج عملي كامل، يحقق انقلاب الإنسان من شخصية منحرفة إلى شخصية مسلمة مثالية متكاملة، وذلك من الناحية الإيمانية السليمة، والعبادة الخالصة، والمعاملة الصحيحة الحسنة والأخلاق الفاضلة .

ومن هنا تظهر أهمية التصوف وفائدته، ويتجلى لنا بوضوح، أنه روح الإسلام وقلبه النابض، إذ ليس هذا الدين أعمالاً ظاهرية وأموراً شكلية فحسب لا روح فيها ولا حياة .

وما وصل المسلمون إلى هذا الدرْك من الانحطاط والضعف إلا حين فقدوا روح الإسلام وجوهره، ولم يبق فيهم إلا شبحه ومظاهره .

لهذا نرى العلماء العاملين، المرشدين الغيورين، ينصحون الناس بالدخول مع الصوفية والتزام صحبتهم، كي يجمعوا بين جسم الإسلام وروحه، وليتذوقوا معاني الصفاء القلبي والسمو الخُلقي وليتحققوا بالتعرف على الله تعالى المعرفة اليقينية ، فيتحلوا بحبه ومراقبته ودوام ذكره .

قال حجة الإسلام الإمام الغزالي بعد أن اختبر طريق التصوف ولمس نتائجه، وذاق ثمراته : " الدخول مع الصوفية فرض عين إذ لا يخلو أحد من عيب إلا الأنبياء عليهم الصلاة والسلام "[النصرة النبوية] على هامش شرح الرائية للفاسي صـ٢٦ .

وقال أبو الحسن الشاذلي رضي الله عنه : " من لم يتغلغل في علمنا هذا مات مصراً على الكبائر وهو لا يشعر". وفي هذا القول يقول ابن علاَّن الصديقي : " ولقد صدق فيما قال– يعني أبا الحسن الشاذلي – فأي شخص يا أخي يصوم ولا يعجب بصومه ؟ وأي شخص يصلي

ولا يعجب بصلاته ؟ وهكذا سائر الطاعات" [إيقاظ الهمـــم في شـــرح الحكم "لابن عجيبة صـــ٧] .

ولما كان هذا الطريق صعب المسالك على النفوس الناقصة ، فعلى الإنسان أن يجتازه بعزم وصبر ومجاهدة حتى ينقذ نفســـه مـــن بُعـــد الله وغضبه .

قال الفضيل بن عياض ﷺ : " عليك بطريق الحق ، ولا تستوحش لقلة السالكين، وإياك وطريق الباطل، ولا تغتر بكثرة الهالكين. وكلمـــا استوحشت من تفردك فانظر إلى الرفيق السابق، واحرص على اللحـــاق بهم، وغُضَّ الطرف عن سواهم، فإنهم لن يغنوا عنك من الله تعالى شيئا، وإذا صاحوا بك في طريق سيرك فلا تلتفت إليهم فإنك متى التفتَّ إليهم أخذوك وأعاقوك "["المنن الكبرى" للشعراني ج١/صـــ٤]. ا.هـــ كلام سيدي الشيخ عبد القادر عيسى وهو نفيس للغاية .

الفصل السابع : في مسائله

مسائل علم التصوف : أعماله – وآثارها – والمصطلحات فيه.

- **أما أعمالـه** : فهي التخلية والتحلية للباطن والظاهر.
- **أما آثارهـا** : فآثار الأعمال هي الأحوال والمدارج والمقامات الـتي ينـزلها العبد في سلوكه .
- **والأحـوال** : جمع حال . والحال : هو معنى يرد على القلب من غير تعمد منه .

فالأحوال : مواهب ربانية وعطايا رحمانية وواردات إلهية يفيضها الله عز وجل على قلوب عباده وأصفيائه .

- **والمقامات**: جمع مقام . والمقام : هو الإقامة والمراد به هنا ما يتحقق به العبد بنـزوله فيه من الآداب . وهذه المقامات : هي مدارج أرباب السلوك أي سلم الوصول إلى رضوان الله . وقد فصَّل الإمام القشيري رحمه الله في رسالته المشهورة في التصوف المقامات والأحوال تفصيلاً حسناً.
- **وأما المصطلحات** : فهي العبارات والألفاظ التي وضعها السادة الصوفية لدلالة على الأعمال والآثار.

قال الإمام القشيري رحمه الله : " اعلم أن من المعلوم أن كل طائفة من العلماء لهم ألفاظ يستعملونها فيما بينهم انفردوا بها عمن سواهم تواطؤوا عليها لأغراض لهم فيها من تقريب الفهم على المخاطبين بها أو تسهيل على أهل تلك الصفة في الوقوف على معانيهم بإطلاقها وهذه الطائفة يستعملون ألفاظاً فيما بينهم قصدوا بها الكشف عن معانيهم لأنفسهم والإجمال والستر على من باينهم في طريقتهم لتكون معاني ألفاظهم مستبهمة على الأجانب غيرةً منهم على أسرارهم أن تشيع في غير أهلها إذ ليست حقائقهم مجموعة بنوع تكلف أو مجلوبة بضرب تصرف بل هي معان أودعها الله تعالى قلوب قوم واستخلص لحقائقها أسرار قوم .

ونحن نريد بشرح هذه الألفاظ تسهيل الفهم على من يريد الوقوف على معانيهم من سالكي طرقهم ومتبعي سنتهم ثم شرع رحمه الله يشرح تلك المصطلحات ومنها المقام والحال وقد شرحتهما لك .

الفصل الثامن : النسبة

نسبة التصوف الإسلامي إلى غيره أنه أصل للتحقق من كل علم وفن .

فمن أراد أن يتحقق في أي علم أو فن فعليه بالتصوف أولاً لأن التصوف وسيلة التقوى وطريق الإخلاص وبهما يحصل النور والتحقق والتمكن .

قال تعالى : ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُۗ ﴾ . (البقرة: ٢٨٢).

وفي الخبر: (من أخلص لله أربعين يوماً ظهرت ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه). [رواه ابن المبارك في الزهد وأبو نعيم في الحلية بإسناد ضعيف] .

قال الإمام مالك ﷺ : " من تفقه ولم يتصوف فقد تفسق ، ومن تصوف ولم يتفقه فقد تزندق " أي من طلب علم الأحكام الشرعية دون تخلية وتحلية أوقعه ذلك في الفسق لما طبع عليه الناس من معاني تستلزم ذلك قبل تهذيبها وتحليتها ، ومن طلب علم التصوف مجرداً عن الأحكام الشرعية فسوف تزل قدمه في وَحْل الزندقة والعياذ بالله لأن أخلاقه تكون حينئذ مطلقة عن قيود الشرع .

وقد علمت أن الشرع هو ضابط الأخلاق فالأخلاق حدَّ لها الشارع حدوداً فلو قال إنسان لا نقيم حداً بدافع الرحمة لا نسمع منه

لأن الشرع أمر بإقامة الحدود وفي إقامتها الرحمة فخلق الرحمة له معناه وضوابطه في الشرع وهكذا لا بد أن يتقيد التصوف بالتفقه ليسلم صاحبه من الزندقة .

وفي هذا يقول الإمام الشافعي ﵁ :

فقيهاً وصوفياً فكن ليس واحداً فإني وحق الله إياك أنصح
فذاك قاس لم يذق قلبه تُقى و وهذا جهول كيف ذو جهل يصلح

وقال أبو بكر الوراق رحمه الله : " من اكتفى بالكلام من العلم دون الزهد والفقه تزندق ، ومن اكتفى بالزهد دون الفقه والكلام تبدع، ومن اكتفى بالفقه دون الزهد والكلام تفسق ، ومن تفنن في الأمور كلها تخلَّص" .

ومن كلام الإمام الوراق تدرك أنه لا بد من ثلاثة علوم :

١- العقيدة وهي مقام الإيمان .

٢- وفقه الشريعة : وهو مقام الإسلام .

٣- والزهد وهو مقام الإحسان . مراتب الدين في حديث جبريل ﵇ .

وقال الإمام يوسف الرازي رحمه الله : " بالأدب تفهم العلم، وبالعلم يصح لك العمل، وبالعمل تنال الحكمة، وبالحكمة تفهم الزهد وتوفق له، وبالزهد تترك الدنيا، وبترك الدنيا ترغب في الآخرة، وبالرغبة في الآخرة تنال رضا الله ".ا.هـ .

الفصل التاسع : فضل التصوف

فضل التصوف عظيم : فهو الشرف الحقيقي لتحقيقه معنى العبودية في العبد للرب جل وعلا.

قال الله عز وجل : ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ ﴾(النساء: ١٢٥) .

وقال عز وجل : ﴿ أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾ (يونس: ٦٢ – ٦٤) .

وقال عز وجل : ﴿ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّۦنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُو۟لَٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾ ذَٰلِكَ ٱلْفَضْلُ مِنَ ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ عَلِيمًا ﴾. (النساء: ٦٩ – ٧٠).

وعن أبي سعيد الخدري ﷺ أن رسول الله ﷺ قال : { يقول الله عز وجل يوم القيامة : سيعلم الجمع من أهل الكرم } فقيل : ومن أهل الكرم يا رسول الله ؟ قال :(أهل مجالس الذكر). [رواه أحمد وأبو يعلى وابن حبان في صحيحه] .

وفصَّل النبي ﷺ ذلك فيما رواه الطبراني بإسناد حسن عن أبي الدرداء ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : (ليبعثنَّ الله أقواماً يوم القيامة في وجوههم النور على منابر اللؤلؤ يغبطهم الناس ليسوا بأنبياء ولا شهداء) قال : فجثا أعرابي على ركبتيه فقال : يا رسول الله حلّهم لنا نعرفهم قال : (هم المتحابون في الله من قبائل شتى وبلاد شتى يجتمعون على ذكر الله يذكرونه) .

وقد نص أهل العلم على علو رتبة الصوفية وسيأتي كـلام كـثير منهم في الخاتمة إن شاء الله عز وجل .

الفصل العاشر : ثمرة التصوف

ثمرة التصوف :

١- تذوق حلاوة الإيمان .

٢- حصول الأنس بالله عز وجل .

٣- التحلي بالأخلاق المحمدية .

٤- الوصول إلى مقام الإحسان .

٥- التحقق بالمعارف الدينية والفوز بالمكارم الدنيوية والأخروية .

قال الله عز وجل : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْأَخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِيٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴾ . (فصلت: ٣٠ – ٣٢) .

وقال عز وجل : ﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ . (النحل: ٩٧) .

وقال سبحانه وتعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ ۙ يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمُ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ . (النحل: ٣٢).

وقال الله عز وجل :﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ ﴾ . (العنكبوت: ٦٩) .

وقال عز وجل : ﴿ ۞ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ﴾ . (يونس: ٢٦) .

وقال عز وجل : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴾.(النحل: ١٢٨).

وقال عز وجل : ﴿ أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ﴾(يونس: ٦٢ – ٦٤).

وقال ﷺ فيما يرويه عن الله عز وجل : { ما يزال عبدي يتقرب إليّ بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به ويده التي يبطش بها ورجله التي يمشي بها وإن سألني لأعطينه ولئن استعاذني لأعيذنه } . رواه البخاري .

والمعنى أن يجعل الله عز وجل حواسه وآلاته وسائل إلى مرضاته فلا يسمع ولا يبصر ولا يبطش ولا يمشي إلا فيما يحبه الله ويرضاه .

قال الإمام محمد الترمذي رحمه الله : " ليس الفوز هناك بكثرة الأعمال
إنما الفوز هناك بإخلاص الأعمال وتحسينها " .

وقد أكرم الله عز وجل الصوفية بكرامات كثيرة صَنّفَ بعض العلماء فيها كتباً خاصة كـــ "روض الرياحين" للإمام اليافعي و"جامع كرامات الأولياء" للعلامة النبهاني وقبلهما كتاب "حلية الأولياء" لأبي نعيم و "الرسالة القشيرية" وغيرها من المصنفات العظام المعتبرة.

وعلى كل حال ثمرة التصوف الفوز بسعادة الدارين والفوز برضا رب العالمين .

وقد تبيّن لك من مبادئ التصوف العشرة أن التصوف علم يُعلم به كيفية تصفية الباطن والظاهر من العيوب المذمومة وتحليتها بالصفات الحميدة وأن مبناه على الكتاب والسنة والتمسك بآداب الشريعة وأنه مسلك شرعي وضعه الله عز وجل لعباده وبيّنه رسول الله ﷺ لأتباعه وسار عليه الصحابة ودرج عليه من تبعهم بإحسان لذلك كان فضله عظيماً إذ هو أعلى مراتب الدين وهو مقام الإحسان وثمرته الفوز برضوان الله الأكبر ولذلك كان سلوك طريق التصوف واجباً شرعياً

وفرضاً عينياً ومن هنا مدحه العلماء وأثنى عليه الفضلاء وهذه خاتمة مشتملة على ذكر طائفة من أقوال أهل العلم في مدح التصوف والصوفية نسأل الله حسن الختام والموت على الإيمان والإسلام آمين .

خــــاتـــمـــة

مشتملة على ذكر بعض أقوال أهل العلم في الثناء على التصوف الإسلامي

١) قال الإمام الجنيد ﷺ : " لو علمتُ أن لله عز وجل علماً تحت أديم السماء أشرف من هذا العلم الذي نتكلم فيه مع أصحابنا وإخواننا لسعيت إليه وأخذته ".ا.هـ وقال أيضاً رحمه الله : " التصديق بعلمنا هذا ولاية " ا.هـ أي طريق للولاية لأن التصديق يدعو صاحبه للاقتداء والمحبة .

٢) قال الإمام أبو عبد الله المغربي رحمه الله المتوفى (٢٩٩هـ) : " ما فطـــنت إلا هذه الطائفة يعني الصوفية " .

٣) قال الإمام أبو عبد الرحمن السُّلمي رحمه الله : " إن الصوفية أمان الله

في أرضه وأخدان أسراره وعلمه وصفوته من خلقه وهم ممدوحون بلسان النبوة ... فمن أنكر هذا المذهب فلقلة معرفته وقلة الاهتداء لحقائقه ...

﴿ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ ﴾ . (الأحقاف: ١١) .

٤) سئل الإمام عبد الله بن المبارك رحمه الله المتوفى (١٨١هـ) : " من الملوك ؟ فقال : الزهاد " ا.هـ . يعني الصوفية .

٥) قال الإمام أبو نعيم الأصبهاني رحمه الله المتوفى (٤٣٠هـ) : " الصوفية : أرباب القلوب المتسوّرون بصائب فراستهم على الغيوب المراقبون للمحبوب التاركون للمسلوب المحاربون للمحروب سلكوا مسلك الصحابة والتابعين ومن نحى نحوهم من المتقشفين والمتحققين العالمين بالبقاء والفناء المميزين بين الإخلاص والرياء والعارفين بالخطرة والهمة والعزيمة والنية والمحاسبين للضمائر والمحافظين للسرائر المخالفين للنفوس والمحاذرين من الخنوس بدائم التفكر وقائم التذكر طلباً للتداني وهرباً من التواني. لا يستهين بحرمتهم إلا مارق ولا يدعي أحوالهم إلا مائق ولا يعتقد عقيدتهم إلا فائق ولا يحن إلى موالاتهم إلا تائق فهم سُرُج الآفاق والممدود إلى رؤيتهم بالأعناق بهم نقتدي وإياهم نوالي إلى يوم التلاق ا.هـ . "الحلية" لأبي نعيم رحمه الله .

٦) قال أبو علي الدقاق رحمه الله : " أنا أخذت هذه الطريقة من أبي القاسم النصراباذي وقال أبو القاسم أنا أخذتها من الشبلي وهو من السرى السقطي وهو من معروف الكرخي وهو من داود الطائي وهو أخذ العلم والطريقة من أبي حنيفة النعمان رضي الله عنه وكل منهم أثنى عليه وأقر بفضله ا.هـ نقله الحصكفي في الدر المختار .

٧) قال الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله تعالى المتوفى (٢٤١هـ) : " لا أعلم على وجه الأرض أقواماً أفضل من الصوفية " ا.هـ نقله ابن مفلح الحنبلي في الآداب الشرعية ونقله السفاريني في غذاء الألباب. وأسند الإمام اليافعي في روض الرياحين إلى الإمام أحمد بن حنبل أنه كان يتردد إلى بعض الصوفية العارفين . فقيل له : أتتردد لرواية عند هذا الشيخ ؟ فقال : عنده رأس الأمر تقوى الله . وفي رواية قال : معرفة الله. وفي تنوير القلوب للعلامة أمين الكردي قول الإمام أحمد بن حنبل لولده : " يا ولدي عليك بمجالسة هؤلاء القوم – يعني الصوفية – فإنهم زادوا علينا بكثرة العلم والمراقبة والخشية والزهد وعلو الهمة ".

٨) قال الإمام الشافعي رضي الله عنه (٢٠٤هـ) : صحبت الصوفية فاستفدت منهم ثلاث كلمات قولهم " الوقت سيف إذا لم تقطعه قطعك ".

وقولهم " نفسك إن لم تشغلها بالحق شغلتك بالباطل ".

وقولهم " العدم عصمة ".ا.هـ . [نقله الحافظ السيوطي في تأييد الحقيقة العلية].وقال أيضاً : " حبب إليّ من دنياكم ثلاث : ترك التكلف

وعشرة الخلق بالتلطف والاقتداء بطريق أهل التصوف " قاله العجلوني

في كشف الخفا .

٩) قال الإمام عبد الكريم القشيري ﷺ (٤٦٥هـ) : " لقد جعل الله هذه الطائفة صفوة أوليائه، وفضلهم على كافة عباده بعد رسله وأنبيائه صلوات الله وسلامه عليهم، وجعل قلوبهم معادن أسراره، واختصهم من بين الأمة بطوالع أنواره. فهم الغياث للخلق، والدائرون في عموم أحوالهم مع الحق بالحق، صفَّاهم من أكدار البشرية، ورقاهم إلى محالِّ المشاهدات بما تجلى لهم من حقائق الأحدية، ووفقهم للقيام بآداب العبودية، وأشهدهم مجاري أحكام الربوبية، فقاموا بأداء ما عليهم من واجبات التكليف، وتحققوا بما منّه سبحانه عليهم من التقليب والتصريف، ثم رجعوا إلى الله سبحانه وتعالى بصدق الافتقار ونعت الانكسار، ولم يتكلوا على ما حصل منهم من الأعمال ، أو صفا لهم من الأحوال، علماً منهم : بأنه جل وعلا يفعل ما يريد، ويختار من يشاء من العبيد، لا يحكم عليه خلق، ولا يتوجب عليه لمخلوق حق ، ثوابه ابتداء فضل، وعذابه حكم بعدل، وأمره قضاء فصل ". ا.هـ . [الرسالة : ٣٦].

١٠) قال مجدِّد القرن الخامس حجة الإسلام الإمام أبو حامد الغزالي ﷺ (٥٠٥هـ) بعد انتهاء بحثه إلى التصوف ورحلته فيه : " إني علمت يقيناً أن الصوفية : هم السالكون لطريق الله تعالى خاصة، وأن سيرتهم أحسن السير، وطريقهم أصوب الطرق، وأخلاقهم أزكى الأخـــلاق .

بل لو جُمع عقل العقلاء، وحكمة الحكماء، وعلم الواقفين على أسرار الشرع من العلماء، ليُغيّروا شيئاً من سيرهم وأخلاقهم ويبدّلوه بما هو خير منه ، لم يجدوا إليه سبيلا، فإن جميع حركاتهم وسكناتهم في ظاهرهم وباطنهم مقتبسة من نور مشكاة النبوة، وليس وراء نور النبوة على وجه الأرض نور يُستضاء به ". ا.هـ . [المنقذ : ٣٧] .

١١) قال مجدد القرن السادس فخر الدين الإمام محمد الرازي ﷺ (٦٠٦هـ) :هؤلاء [يعني:المتحققين من المتصوفة] خير الآدميين ا.هـ .[اعتقادات : ١٠٠]

١٢) قال الإمام شهاب الدين محمد السَّهروردي ﷺ (٦٣٢هـ) : " إن المشايخ من الصوفية ... شمّروا عن ساق الجد في طلب العلم المفترض حتى عرفوه، وأقاموا الأمر والنهي ، وخرجوا من عهدة ذلك بحسن توفيق الله تعالى " .

فلما استقاموا في ذلك متابعين لرسول الله ﷺ حيث أمره الله تعالى بالاستقامة فقال تعالى: ﴿ فَٱسۡتَقِمۡ كَمَآ أُمِرۡتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ ﴾ . (هود: ١١٢) . فتح الله عليهم أبواب العلوم .. ". ا.هـ [العوارف : ٢٥].

١٣) قال الشاطبي رحمه الله في الموافقات : " الصوفية حجة في علومهم وهم صفوة الله من الخليقة باتفاق" .

١٤) قال العز بن عبد السلام رحمه الله : " قعد القوم من الصوفية على قواعد الشريعة التي لا تنهدم دنيا وأخرى وقعد غيرهم على الرسوم ومما يدلك على ذلك ما يقع على يد القوم من الكرامات وخوارق العادات فإنه فرع عن قربات الحق لهم ورضاه عنهم ولو كان العلم من غير عمل يرضي الحق تعالى كل الرضا لأجرى الكرامات على أيدي أصحابهم ولو لم يعملوا بعلمهم هيهات هيهات ". ا.هـ .

١٥) قال تاج الدين السبكي في "معيد النعم ومبيد النقم" تحت عنوان الصوفية :" حياهم الله وبيَّاهم وجمعنا في الجنة نحن وإياهم وقد تشعبت الأقوال فيهم تشعباً ناشئاً عن الجهل بحقيقتهم لكثرة المتلبسين بها ... إلى أن قال وإنهم المعرضون عن الدنيا المشتغلون في أغلب الأوقات بالعبادة ثم تحدث عن تعاريف التصوف إلى أن قال والحاصل أنهم أهل الله وخاصته الذين ترجى الرحمة بذكرهم ويستنزل الغيث بدعائهم فرضي الله عنهم وعنا بهم " ا.هـ .

وفيما ذكرت من الإشارات غنية لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد وصلى اللّه على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم والحمد للّه رب العالمين ولا حول ولا قوة إلا باللّه العلي العظيم

﴿ سُبۡحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلۡعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٨٢﴾ ﴾

تم الفراغ من تحرير هذه الأسطر في نصف جمادى الأولى عام ١٤٣٤هـ

المحتويات